الجزء السابع عشر　　　　(المجلد الرابع)

المنار
١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الالباب

[illegible]

(قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و«مناراً» كمنار الطريق)

(مصر في يوم الاربعاء غرة شعبان سنة ١٣١٩ — ١٣ نوفمبر (ت٢) سنة ١٩٠١)

الشعور والوجدان . وشعائر الامم والاديان

ينبعث المرء الى العمل بشعوره ووجدانه ، اكثر مما ينبعث بفكره وبرهانه ، وبالعمل يسعد ويشقى . وبالعمل يموت ويحيي ،[١]

تأثير الشعور والوجدان ، اقوى في النفس من تأثير العقل والجنان ، بل لا تنفذ احكام سلطان العقل في مملكة البدن الا بواسطة الشعور النفسي بالحاجة الى ما حكم به لدفع ألم او تحصيل لذة فكأن الشعور وزير التنفيذ لسلطان العقل وكثيراً ما يستبد هذا الوزير على ذلك السلطان اجابة لداعي عمّال الحواس والمشاعر فيزعج الجوارح الى العمل بدون استشارته فتخسر الاعمال ، وتخيب الآمال ، ويسوء المصير والمآل ،

نعني بالشعور أن تحس بألم الحاجة الى الشيء أو بلذته وبالوجدان ما تجده في نفسك من ذلك الألم الذي يدفعك الى العمل بما يقتضيه او اللذة الداعية الى المداومة على العمل فالمراد بهما واحد ولذلك نكتفي بأحد اللفظين احياناً . ويعبر

(١) راجع العدد الرابع من المجلد الاول

الصوفية عن هذا المعنى بلفظ (الحال) ومن أصول طريقتهم تربية الحال بما يتفحون من روح التأثير بعقيدة من العقائد او فضيلة من الفضائل فى المريد فينبعث الى العمل الذي هو أثر العقيدة او الفضيلة بوجدان صادق وبالغ فيه ما شاء الله ان يبالغ حتى يكون ملكة راسخة فى النفس وهي ما يسمونه (المقام) . يقولون حال التوكل ومقام التوكل وحال السخاء ومقام السخاء . واذا كان المقام عند الصوفية عبارة عما يسميه علماء الاخلاق من غيرهم خلقاً وملكة فهو إذن ما تصدر عنه الاعمال بلا رويّة ولا تكلف

العمل بمقتضى الحال والوجدان يحتاج الى التفكر فى طريق العمل ومقدماته ثم يرتقي الانسان فيه مع التكلف والتأثر الى هذه الدرجة التي يصدر فيها العمل بلا تكلف ولا انفعال ولا ترتيب مقدمات ولكنه مع ذلك يشعر بأنه متمكن من ذلك المقام ويتفكر فى آثاره الحسنة فاذا غاب عنه هذا الشعور والتفكر فصار لا رويّة ولا رؤية وانما هي اعمال كالانفاس وحركات الجفون فتلك نهاية الكمال فى المقام . والشيخ محيي الدين بن عربي يعبر عن هذا بمقام الترك فيقول مقام التوكل ومقام ترك التوكل ومقام الصدق ومقام ترك الصدق وانما يعني ترك شهوده وتلك غاية الكمال — يصدق المرء من غير شعور سابق يدفعه الى الصدق عند كل فرد من افراده وبدون فكر فى مقدمات الصدق ونتائجه ولا ملاحظة لتلبسه بهذه الفضيلة ولا إعجاب بها وبآثارها وليس محالاً ان يرتقي الانسان فى التهذيب الى أن تكون الاعمال الحسنة منه كحركات الجفون لا يتفكر فيها ولا يشعر بها الا اذا ذكّره مذكر او نبّهه منبه

تلك درجات مرتبة ، ومراتب متعاقبة ، فالشعور والحال ، ثم

الملكة والمقام ، ثم الرسوخ والاطمئنان ، حتى لا شهود ولا عيان ، الا ما كان كومضة برق ، او نبضة عرق »

كيف ينفخ المربي روح الشعور النافع والوجدان الشريف في النفوس ليعرج بها الى جنات الفضائل العالية ، حيث تعيش المعيشة الراضية » ؟

يقول الامام الغزالى ان العلم هو الذى يحدث الحال فى النفس والحال هو الذى يحدث العمل وعلى العمل مدار السعادة ، ويقول ان الترتيب بين هذه الثلاثة واجب لا يتخلف بمقتضى اطّراد سنة الله تعالى فى الملك والملكوت . ونرى اكثر علمائنا بل اكثر الناس يقولون ان العلم لا يوجب العمل وقد نازع حجة الاسلام بلفظ (يوجب) بعض من يوصف بالامامة من العلماء الذين لم يفهموا كلامه لتقيدهم بالاصطلاحات الكلامية . وقد صرح هو بانه يريد بالعلم اليقين بأن هذا الشيء ضار او نافع ولا شك ان اليقين او الرجحان عند تعارض اعتقادين فى النفس هو الذى يملك على النفس أمرها ويبعث فيها وجداناً يزعجها الى العمل . وانما نظر القوم الى العلم التصوري او التصديقي الضعيف الذي تتنازعه الشكوك وتعارضه تصورات او تصديقات اخرى هي اقوى منه فلا يصدر عنه أثره وانما يصدر الاثر عن الراجح القوي كما اوضحناه فى مقالة عنوانها تأثير العلم في العمل (راجع العدد الثاني من المجلد الثاني)

ما قاله الامام الغزالي صحيح ولكن العلم الصحيح اليقيني بالمنافع والمضار والمصالح والمفاسد عزيز فى البشر لا سيما مصالح الامم والملل . ثم ان إيداعه فى النفوس بالتعليم على وجه يغلب تأثير التقاليد والعادات ، والتأثر بما ينافيه من المسموعات والمشاهدات ، أعز واعسر ، واقل

وأندر ، فلابد من تعزيز التعليم بالتربية العملية . بل التربية هي الاصل والتعليم يمدُّها ويغذيها ، ويثمّرُها ويحميها ، وهذه الطريقة طريقة الدين فانه بعد ان أشعر النفوس عظمة الله وسلطانه ، وفضله واحسانه ، شرع للناس اعمالاً ووضع لهم شعائر ، كان لها السلطان الاكبر على القلوب والضمائر ، فكان إحياء وجدان وشعور ، وبعث همم ونشور ، مقروناً بتعليم قويم ، يهدي الى الحق والى طريق مستقيم ،

شرع الدين لإسعاد الافراد في انفسها ، وإسعاد الشعوب في مجموعها ولذلك كان بعض اعماله عبادات تتعلق بتهذيب الأفراد وبعضها شعائر تتعلق بالاجتماع كأعمال الحج والعيدين وصلاة الجمعة والجماعة . وقد كان لهذه الشعائر تأثير عجيب في الحياة الملية الاجتماعية حيث لم تكن رسماً صوريًّا يؤدى كما تؤدى المغارم والديون على ما هي اليوم . وانني لا انسى ذلك الشعور الاسلامي الذي كان يسوقني وأنا ابن بضع سنين الى مسجد البلد الجامع لحضور صلاة التراويح وصلاة الفجر ولحضور الوعظ بعد العصر في رمضان ولا انسى تلك اللذة الروحية في اجتماع الناس لهذه العبادات وامثالها لا سيما ارتفاع اصواتهم بالتكبير قبل صلاة العيد — الله اكبر الله اكبر الله اكبر . لا اله الا الله والله اكبر ، الله اكبر ، ولله الحمد . . . .

هذا الشعور الذي يجده الصغير في نفسه بمقتضى الفطرة يفقده بعد ان يعتاد هذه الاعمال من غير فهم الا أنْ يتعاهد بتربية تجدد عنده في كل طور من اطوار العمر فهما في هذه الشعائر يبعث فيه شعوراً يليق به . ولولا أن منّ الله تعالى عليّ منذ تعلمت القراءة والمطالعة بعشق كتاب احياء علوم

الدين الذي هو اعظم كتب علماء الاسلام تأثيراً في النفوس لصارت العبادة عندي عادة لا تأثير لها وانما صرحت بهذا ليكون ارشاداً فعلياً الى الانتفاع بهذا الكتاب وان كان يوجد فيه ما أود حذفه منه ليكون نفعه عاماً

ومن البلاء العظيم الذي نزل بالمسلمين التقصير في اقامة شعائر الاسلام على اصلها والتوسل بها الى احياء الشعور الملي فقد نزعت روحها اولا ثم طرأت الامراض على صورها فغيرتها حتى عافها المترفون واعرض عنها الاكثرون . وكأن الشعائر التي تبعث الشعور وتحرك ساكن الوجدان امر طبيعي في الامم ولذلك لم يلبث المسلمون بعد ضعف شعائرهم أن استبدلوا بها شعائر أخرى سرت اليهم من الأمم المخالطة ولكنهم صبغوها بصبغة دينهم ولوّنوها بلون شرائعهم وهي الاعياد والمواسم التي يحتفلون بها عند قبور الصالحين وفي بعض الايام الفاضلة فلهذه المواسم تأثير كبير في نفوس العامة وهو شعور ديني لا ينكر ولكنه غير اسلامي وابعدها من الاسلام أشدها تأثيراً وهو ما يسمونه المولد (راجع باب البدع)

اتبع المسلمون في هذا سنن من قبلهم في الابتداع فان المسيحيين تركوا اعياد اليهودية وهي ديانة المسيح واتخذوا لانفسهم اعياداً اخذوها عن الوثنيين فان عيد الميلاد المسيحي لم يعرف عندهم الا في القرن الرابع بعد المسيح . وعيد ميلاد مريم اختلف فيه فقيل ابتُدع في القرن الخامس وقيل في السابع وقيل في التاسع وقيل في الحادي عشر . وعيد الشهداء لم يعرف الا في اواخر القرن الرابع فكانوا يقرأون قصصهم وتؤدى عندهم فرائض العبادة وتذبح الذبائح ويولم الاغنياء الولائم فيأكلون ويشربون ويلهون ويلعبون . وأما عيد الرسل فلا ندري متى ابتدع ولكن له

ذكراً في حوادث القرن الرابع وكانوا يحتفلون به في رومية عند قبري بطرس وبولس

قلنا ان النصارى اخذوا اعيادهم هذه عن الوثنيين ولوّنوها بلون دينهم وهذا القول قد صرح منهم به كثيرون من رجال التاريخ ورجال الدين وصرحوا بأنهم كانوا يعبدون الشهداء والرسل وان ذلك سرى فيهم بالتدريج كما قال بيوسوبر في تاريخ المانيكيين . وجاء في قصة حياة غريغوريوس توماتورغوس : ان غريغوريوس لما رأى الجماهير الجهلاء البسطاء متمسكين بأصنامهم لما فيها من اللذات الحسية أذن لهم في اعياد الشهداء القديسين أن يتلذذوا ويتنعموا رجاء ان ينتقلوا بعد ذلك باختيارهم الى حياة حسنى وطريقة مثلى . وفي (ريحانة النفوس في الاعتقادات والطقوس) : « ان الذين انحازوا من عبادة الاوثان الى الديانة المسيحية إذ وجدوا بعض أمور في اعياد الشهداء تشبه ما كانوا معتادين عليه في اديانهم الأولى فقد نقلوا اليهم ذلك الاكرام الذي كانوا يقدمونه لآلهتهم »

ولم يوجد في النصارى من يأوّل لهم عبادة الشهداء ونحوهم لما انتشرت فيهم وعمت بلادهم . وانما نذكر عبارة من تلك التأويلات لاجل تطبيق الحديث الشريف . قال اغوستينوس : انا نعلم ان نكرم الشهداء لا أن نعبدهم بل انما نعبد الله وحده الذي تعبده الشهداء لانه لا يجب ان نكون مثل الوثنيين الذين نحزن عليهم لانهم يعبدون الموتى من الناس . ثم اوضح هذا بقوله : انا لا نتخذهم آلهة ولا نعبدهم كآلهة فانا لا نعطيهم هياكل ولا مذابح ولا ذبائح ولا يقدم لهم الكهنة القرابين حاش لله فان هذه الامور إنما تعمل لله فقط اه . اقول لكنهم باسم التعظيم

والتكريم الذى اذن فيه وجوزه قد قدموا لهم الذبائح وعبدوهم عبادة حقيقية وان لم يسمها بعضهم عبادة . وهذا هو السبب فى تشديد النبي صلى الله عليه وسلم النكير على تعظيم القبور واتخاذها اعياداً . ولكن هي سنة الكون تنتقل العادات والتقاليد من بعض الملل الى بعض كما فى الحديث الصحيح « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع . قالوا يارسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال فمن »؟ ؟

تقلد الامم بعضها بعضاً فى الشعائر الدنيوية أيضاً فان اهل الغرب اتخذوا لملوكهم اعياداً لاحياء الشعور الوطني الذي يمثله رئيس الدولة فى الملكية . وللدول الجمهورية منهم اعياد باسم الحكومة التي يعتزون بها ويعززونها . وقد قلدهم الشرقيون فى الاحتفال بأعياد ملوكهم وأمرائهم لارضائهم اذ كانوا لا وطن لهم ولا وطنية ، ولا دول عزيزة بملوكها قوية ، ولا شك ان هذه الاعياد شعائر تبعث الشعور بحب السلطان او الامير فى نفوس الذين يعتقدون فيه النفع للدولة والامة فينتفع بهذا المستبدون ، ويغتر به المغترون ، حتى يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون

يبلغ الشعور فى افراد الامم العزيزة الحرة مبلغاً بعد من الخوارق فى نظر الامم المريضة المستعبدة فقد كثر فى هاتين السنتين عدد المجانين فى انكلترا وقال نطس الاطباء ان سبب ذلك الانفعال الشديد لخذلان الدولة فى حربها الترانسفال . وما دفع البوير الى الاستبسال فى ساحات الوغى الا الشعور القوي بألم الاستعباد المتوقع الذى استوى فيه النساء مع الرجال ، فكن عوناً لهم فى ميادين القتال ، فليعتبر قومنا إن كانوا يشعرون ، او ليموتوا ليحيى الاحرار والحاكمون ، نعم قد دب فيهم شيء من الشعور نفرد له مقالة فى جزء آخر